جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم الانسانية
مجلة اوروك للعلوم الانسانية
موقع المجلة : www.muthuruk.com
BM-Publisher

الهويات المنسلخة.. العراق اِختياراً

وليد شاكر نعاس*
عامر صلاّل راهي
جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم الانسانية

معلومات المقالة

تاريخ المقالة:
الاستلام: 2019/2/25
تاريخ التعديل : --
قبول النشر: 2019 /3/19
متوفر على النت:2019/7/4

الكلمات المفتاحية :
الهوية المنسلخة
العراق

الملخص

ظاهرة الهوية من المفاهيم التي احتلّت حيّزاً كبيراً في المشهد الإنسانيّ قديماً وحديثاً، وثمّة صياغات عديدة خاضت في تحديدها وبيان خطوطها وأنماطها.

هذه الظاهرة فاعل رئيس في إعادة تشكيل الوعي لفئة من الناس، ولها تجلّياتها العميقة سلباً أو إيجاباً.

المشهد العراقي اليوم- للأسف-قد أُتخم بهويات منسلخة متشظية، في مجملها ساعدت على تعميق الجروح سعةً وامتداداً على خارطة الوطن.

يحاول الباحثان إحياء التساؤل- بشكلٍ مبسّط- عن هذه الظاهرة، وكيف طفت نماذجها على المجتمع العراقي؟ ولماذا قادت الجميع إلى صراعات قاتلة؟ وكيف ستكون جذوراً للجيل القادم وأرضاً خصبة لقتال أبناء الوطن؟ وهل يمكن صياغة أفق لتجاوزها؟

اِقتربنا من وصف المشهد العراقي من دون استطرادٍ إنشائي، ومن دون الخوض في أسماءٍ كانت السبب المباشر لما آلت إليه الهوية العراقية.

أردنا في هذه الأوراق أن نرى الظاهرة ملمحاً بشرياً يمكن تغذيته سلباً أو إيجاباً من دون الغوص في متاهات التفريع في تمثّلاته داخل المشهد العراقي؛ لأنّ الالتزام يفترض كمّاً أكاديمياً محدّداً كورقة بحثية للمؤتمر.

© جميع الحقوق محفوظة لدى جامعة المثنى 2019

مدخل:

ظاهرة الهوية من المفاهيم التي احتلّت حيّزاً كبيراً في المشهد الإنسانيّ قديماً وحديثاً، وثمّة صياغات عديدة خاضت في تحديدها وبيان خطوطها وأنماطها.

هذه الظاهرة فاعل رئيس في إعادة تشكيل الوعي لفئة من الناس، ولها تجلّياتها العميقة سلباً أو إيجاباً.

والمشهد العراقي اليوم- للأسف-قد أُتخم بهويات منسلخة متشظية، في مجملها ساعدت على تعميق الجروح سعةً وامتداداً على خارطة الوطن.

يحاول الباحثان إحياء التساؤل- بشكلٍ مبسّط- عن هذه الظاهرة، وكيف طفت نماذجها على المجتمع العراقي؟ ولماذا قادت الجميع إلى صراعات قاتلة؟ وكيف ستكون جذوراً للجيل القادم وأرضاً خصبة لقتال أبناء الوطن؟ وهل يمكن صياغة أفق لتجاوزها؟

اِقتربنا من وصف المشهد العراقي من دون استطرادٍ إنشائي، ومن دون الخوض في أسماءٍ كانت السبب المباشر لما آلت إليه الهوية العراقية.

أردنا في هذه الأوراق أن نرى الظاهرة ملمحاً بشرياً يمكن تغذيته سلباً أو إيجاباً من دون الغوص في متاهات التفريع في تمثّلاته داخل المشهد العراقي؛ لأنّ الالتزام يفترض كمّاً أكاديمياً محدّداً كورقة بحثية للمؤتمر.

*الناشر الرئيسي : E-mail : wedad@mu.edu.iq

أوّلاً: الهوية ملفوظاً

الهوية ملفوظ فلسفي، يشتقّ لغويّاً من الضمير(هو) ،وحول الأخير تدور المفردة عند المعجميينَ(1)، من هوى وتبدّلاتها واشتقاقاتها، وإن تحدّث عنها كشّاف اصطلاحات الفنون، فهماً صوفياً، بأنّها الحقيقة في عالم الغيب(2)؛ بإعطائها بُعداً دينيّاً.

ثمّ يدور هذا المفهوم في حقولٍ أخرى اجتماعية وفلسفية ونفسية.. لإثرائها وتنوّعها في نقاشات فكرية، كلّ يُدلي بدلوه في إعادة تشكيل فهم الهوية على وفق أصناف تختلف باختلاف مرجعيات الباحث، وكيفية الوعي بها.

ونحسب أنّ هذه الظاهرة قد دارت حولها دراسات مثمرة لما لها من تحدّيات حاضرة بقوة في المشهد العالمي، هذه الظاهرة/ المشكلة في تنوّعها وتباينها وأدواتها في ممارسات دينية وإعلامية ومجتمعية... الخ، كانت تمرّر على الذوات على وفق مقاصد محدّدة.

الهوية هي الذات أو الثقافة لفرد أو مجموع، هي الملامح التي تشترك بها فئات من الناس، الهوية هي ((التصوّرات والذكريات والرموز والقيم والابداعات والتعبيرات والتطلّعات، لشخص ما أو مجموعة ما، وهذه المجموعة تشكّل أمّةً بهويتها وحضارتها، التي تختلف من مكان لآخر في العالم))(3)، فهي بالمجمل نتيجة عوامل عديدة كما حدّدها العالم أريكسون(4)، اجتماعية، سلوكية، ثقافية، ونحو ذلك، وقد تكون((هوية الفرد بناءً على نموّه وتأقلمه مع المجتمع))(5)، بمعنى تحوّلها في تحقيقات متتالية مع المراحل العمرية، بما تغذيه من قيم ورموز فئوية، تستنطق وجدانه وغرائزه عبر وسائل عديدة من مدات حياة الفرد أو الجماعة.

والمحصلة نعتقد أنّ الهوية تمثّل حاضنة الضمير الجمعي لأي فئة من البشر، ولا يمكن تصوّر فئة من الناس لا تحمل قيماً وعادات وتكيفات تشكّل وعيها الجمعي، بما يمكن عدّها هوية لها.

ثانياً: الهوية معرفة

يتّفق الباحثون- معظمهم- أنّ العام 1989 هو العام الذي شهد مسار تحوّلات كبيرة في أحداث القرن العشرين؛ حين شهد إنهيار الاتحاد السوفياتي ودول ما يسمّى حلف وارشو، ذات البُعد الأيديولوجي هوية، وفي هذا العام تمّ سقوط جدار برلين؛ لتُعاد ترتيبة النظم السياسية متحوّلة نحو هويات جديدة، لها قيمها وأيديولوجياتها المختلفة عن ماضيها، إنطلاقاً من وعي كوني آخر يبحث عن فضاء(هوية) تملأ السابق الذي انهار(6).

على أنّ الهوية معرفة تكاد تتجاوز المعطى الآنف الذكر- العام 1989- إلى ارتدادات بعيدة، لم تعرف تحيّزاً مكانياً أو زمانياً في عدّها هنا وليست هناك ملمحاً، بمعنى آخر إنّها موجودة ظاهرة بشرية في أرجاء المعمورة، وإن لم تتحقق درساً بحثياً.

ومن دون الخوض في قراءة مراحلها التاريخية معرفةً، يمكن للقارئ أن يقرأ دلالة العلاقة بين الإنسان والمكان، وبين الإنسان وما يحيط به، سوف يعثر على ثمّة انغماسات مدهشة، تحيل إلى هذه الظاهرة، سواء أكانت متمثّلة بالقبيلة أو العقيدة، أو بين المجتمع، وهي أبرز أدوات الهوية، في تعالق الفرد مع الآخر، ملمحاً بشرياً.

هذه الهوية يتمّ التعرّف عليها في مستوياتٍ ثلاثة: فردية، وجماعية، ووطنية أو قومية(7)، وهي في الوقت ذاته تسير في اتجاهين مختلفين، يمكن أن تقلص(إرتداداً)، ويمكن أن تنشر (إحتواءً)، وهذان الأمران يعودان إلى ثمّة عوامل شدّ وجذب، قد تكون عاملاً مهمّاً في تفكيك الهويات إلى أخرى، فاقدة للهوية الكبرى.

وربّما نستعين في تمييز الدكتور طه عبدالرحمن بين الهويات، وتحديداً الهوية المائعة تلك التي ترتدّ بنا نحو الفئوية الضيقة بوصفها ((لا تتولّد من النظر إلى الغير بعين الغير والنظر إلى الذات بعين الغير))(8)، ممّا يفقدها التأقلم الاجتماعي والحضاري؛ لأنّ الذات هنا ترتدّ عن الانتماء أو التصالح مع الآخر.

لذلك تكون هذه الهوية مأزومة ملتبسة، تفرز بدورها أزمة وعي تجاه المشترك الجامع (الوطن)، لتؤسّس ضياعاً للثوابت المشتركة مع هويات أخرى تشترك معها تأريخياً ولغةً وجغرافيةً ...، نحو تصدّعات تلغي تواصلها الإنساني مشتركاً جمعياً.

نعم إنّ هذه الهوية المأزومة قد إنغرست مشهداً مثيراً في العراق بعد العام 2003، خروجاً عن الهوية الكبرى(الوطن) إلى تمثّلات أو إنشطاراتٍ هووية صغيرة تحاول محو الذاكرة الجمعية للعراق وطناً وتأريخياً.

DOI:10.18018/URUK/019-12/1309-1313

وقد تجسّدت هذه الهويات في صبغات دينية ومناطقية ومجتمعية..، بوصفها نوعاً من الهروب من المواجهات المؤلمة التي خلّفها الاحتلال الأمريكي، والمتزامن مع الاشهار(السمعي-البصري) القادم من دول الجوار، الذي مرّر رسائله إقناعاً خادعاً؛ لتغذية إنشطارات مؤلمة أصابت مختلف فئات المجتمع العراقيّ.

ثالثاً: إنتاج المنسلخ

لاشكّ إنّ العوامل التي أدّت إلى إنهيار الدولة العراقية، بعد العام 2003، قد أثّرت سلباً في بنى المجتمع العراقي، قادتها لاحقاً نحو هوية منسلخة عن الهوية العراقية الكبرى، هويات تتجاوز دائرة الوطن نحو آخر ترتمي عنده، فكاكاً من أسرِ الهويات القاتلة إلى هويات تتوافق مع ذواتها وخصوصياتها المشروعة، وإغناءً لهوياتها المستلبة.

لقد حلّ الوعي الفئوي مكان الوعي الوطني؛ بفعل الصراع المقيت بعد العام 2003، الذي حفر عميقاً في جراحات لاختطاف أفراده، وتوجيهه بما يستفزّ مشاعره وعواطفه وغرائزه، وتعطيل حواسه الوطنية؛ بالتشويش على قيمها، حين تتساوى مفردة التراب مع التراث عند المواطن العراقي(9)، وصولاً إلى تكريس هويته المنسلخة عن أصلها، وعياً وإدراكاً.

ولم تكن الإشهاريات- السمعية والبصرية - بعيدة عن تغذية هذا التصارع الهوويّ، كلّ يقدّم نفسه مدافعاً عن جمهوره، على وفق رغبات أنوية ضيقة، تتعاضد لطمس معالم الهوية العراقية، وكأنّ ما حصل لنا لم يكن سوى طبيعة بشرية كانت مخفية سابقاً، وطفت على السطح بين ليلة وضحاها.

والمشكل الأكبر هو الحياد التام الذي التزمه المثقفون والتنويريون، كأنّهم إرتدّوا إجباراً نحو صراع الهويات المنسلخة، ولم يبقَ في الساحة سوى شخوص الصدفة، الذين ظهروا بعد العام 2003، ليقودوا الاستتباع الهوويّ نحو انسلاخات أخرى، مزّقت وخرّبت وسطّحت معظم قيم المجتمع العراقي.

هويات منسلخة تستتبع فردانيتها وطبقتها وإطارها الأثني، الذي تمّ اللجوء إليه إختياراً، أو بديلاً عن الهوية الكبرى نحو شتات مؤلم وممزق لجغرافيا العراق؛ فكلّ فئة أو حزب أو مجموعة تريد إقصاء الآخر؛ لتفرض نمطها وحضورها في مكانٍ ما، من دون قبول للتعايش المتعدّد، ولو على حساب المذهب الواحد!!

الهويات المنسلخة في حقيقتها، إقصاءات متتالية للآخر المشترك جغرافية وعقيدةً وتأريخاً ...، إنّه إلغاء للوعي إلى آخر منعزل وضيّق، وهو سلاح خطير قد نلمسه اليوم إضطراراً ولكنّه سيشكّل وعياً للأجيال القادمة؛ لتعمّق جراحاتها سوءاً، نحو اتباعات خارجية(10).

ولنقُل بوضوح: إنّ هذه الهويات المنسلخة سوف تقود الجيل القادم إلى مغامرة الانتقال من المحيط الوطني إلى الفئوي، الذي يصوغ وعيه على مصاديق ثانوية، تنهل وجودها من إتباعات خارجية، قد تغذي الذهنية المذهبية أو الأثنية، ومن ثمّ قطع صلتها بالوطن الأمّ(11).

وعطفاً لما مرّ ذكره لا نستغرب الفساد المستشري لدى الطبقة التي تتمتّع باتباعية الولاء لغير الوطن؛ لأنّ مرجعياتها ومصادر فهمها وقيم تفكيرها، لا تنتمي إلى العراق' إلاّ عن طريق هويات مصطنعة مزيفة ومخفية التوجّه!!

رابعاً: البديل المفترض

عرفنا أنّ الهوية هي تكيّفات تصاغ من قبل عدّة فئات، يرافقها شعور بالطمأنينة والارتباط والمشاركة مع الآخر المختلف عنّي مذهباً أو ثقافةً أو نحو ذلك.

يعتقد الباحثان أنّ الهوية العراقية متداخلة فيما بينها بشكلٍ ملفتٍ للنظر، وهذا التداخل كان يمثّل خصيصة جليّة في المجتمع العراقي وصولاً إلى منتصف خمسينات القرن العشرين، ثمّ بدأت تخترق في الربع الأخير من القرن العشرين، وإن كانت غير مؤثّرة بشكلٍ واضح(12).

والمدهش إنّ الثقافة العراقية في جميع توصيفاتها كانت صورة واضحة لملامح التعايش بين فئات المجتمع العراقي، وهو ما تنبّه له الكثير من الباحثين الذين قرأوا الرواية العراقية بعد سنة 2003؛ بحثاً عن الهويات التي تجلّت فيها(13).

ولم تستطع حتى الهويات الدينية المذهبية أن تغرّد خارج السرب؛ بحثاً عن بديل الهوية العراقية، بل وجدنا ما يدهش المرء من تعايش وتجاور في الاحتفاء بالمعتقد أو الرموز؛ إذ تجد السُّنّيّ والشّبكي والمسيحيّ يتعاضدون لإحياء مراسيم عاشوراء،

DOI:10.18018/URUK/019-12/1309-1313

وهناك تاجر يهوديّ يساعد المسلم، وهناك كرديّ يزوّج بناته لعربيّ ...، لوحة من الفسيفساء مذهلة وجميلة في تنوّعها، واختلافها، وانصهارها في وطنها الأمّ.

ولكن للأسف تمّ تخريب هذه الفسيفساء البرّاقة بآخر مؤلم في كلّ شيء؛ ذلك حين أصبح الظلم قانوناً، عندها أضحت الهويات المنسلخة واجباً إنّها مرحلة تأريخية جارحة، ينبغي إدراكها على حقيقتها، والانتباه إلى تسليعها من قبل الشّاذّينَ، وعليه يفترض الباحثان أمور منها، الآتي:

1- تفعيل مبدأ التسامح الدينيّ، والثقافي، والمجتمعي.
2- التشديد على الخطاب الوطني دون غيره.
3- تجاوز التفريع الهوويّ، من خلال أجهزة الدولة كافّة.
4- إحياء المجتمعات المتداخلة في هويتها.
5- إحياء الدولة المدنية، قبالة المساحات المضادّة لها.
6- إعادة توصيف الرموز الدينية والايديولوجية، توصيفاً مقبولاً لا يخدش مشاعر الآخرين.

الهوامش:

1- ينظر: لسان العرب: مادة(هوى)، والقاموس المحيط: مادة(هوى).
2- ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون: 548.
3- نظرية الثقافة: 75.
4- ينظر: تاريخ الأفكار السياسية: 184.
5- ماكس فيبر: 372.
6- ينظر: الهويات القاتلة: 34.
7- ينظر: نفسه: 68.
8- ينظر: أزمة الهويات: 251.
9- ينظر: في العنف: 127.
10- ينظر: المجتمع المدني: 355.
11-ينظر: في العنف: 182.
12- ينظر: جدل الهوية، نقاشات حول الرواية العراقية الجديدة: 9.
13- ينظر: الهوية في الرواية العراقية بعد سقوط بغداد: 17.

مصادر البحث:

1- أزمة الهويات: كلود دوبار، ترجمة رندة بعث، ط1، المكتبة الشرقية، بيروت، 2008.
2- تاريخ الأفكار السياسية: جان توشار، ترجمة ناجي الدراوشة، ط1، دار التكوين، بيروت، 2010.
3- جدل الهويات: سليم مطر، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003.
4- حول الرواية العراقية الجديدة: جميل الشبيبي، ط1، دار شهريار، بغداد، 2018.
5- في العنف: حنة أرنت، مراجعة عبد الله الغانم، ط2، دار الساقي، بيروت، 2015.
6- لسان العرب: ابن منظور، محمد(711هـ)، ط15، دار صادر، بيروت، 1414هـ.
7- كشاف اصطلاحات الفنون: محمد بن علي التهانوي، ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 1996.
8- ماكس فيبر، الدولة الديمقراطية: بوبكر بوخرسة، ط1، مركز الكتاب الأكاديمي، الجزائر، 2011.
9- المجتمع المدني: عزمي بشارة، ط6، المركز العربي للأبحاث والنشر، بيروت، 2012.
10- نظرية الثقافة: ميشيل تومبسون وآخرون، ترجمة علي الرضا، ط1، عالم المعرفة، الكويت، 1998.
11- الهويات القاتلة: أمين معلوف، ترجمة نبيل محسن، ط1، دار ورد، بيروت، 1999.
12- الهوية في الرواية العراقية بعد سقوط بغداد: حنان محمود، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2018.

DOI:10.18018/URUK/019-12/1309-1313

Abstract :

The phenomenon of identity is one of the concepts that have occupied a great deal in the human landscape in ancient and modern times, and there are many formulations which have been used in defining and defining their lines and patterns.

This phenomenon is the chief actor in reshaping the consciousness of a class of people, and has profound manifestations negatively or positively.

Today, the Iraqi landscape - unfortunately - has inflated fragmented, fragmented identities, all of which have helped to deepen wounds on the country's map.

The researchers are trying to revive the question - in a simplified manner - about this phenomenon, and how the models circulated on Iraqi society? Why did they all lead to deadly conflicts? And how will the roots of the next generation and fertile ground to fight the people of the homeland? Can a horizon be formulated to overcome them?

We approached the description of the Iraqi scene without structural extinction, and without going into the names were the direct cause of the Iraqi identity.

In this paper, we wanted to see the phenomenon as a human trait that could be fed negatively or positively without diving into the maze of splits in its representations within the Iraqi scene, because the commitment is assumed as an academic specific as a research paper for the conference.